المحاضرة الاولى

الأنثروبولوجيا الثقافية

ان موضوع دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة Culture، ولذلك ارتبطت نشأة هذا الفرع للأنثروبولوجيا بظهور أول مفهوم واضح لاصطلاح الثقافة، وقد تم ذلك لأول مرة على يد العلامة ادوارد تايلور E. Tylor في عام 1871م, ولظهور العالم الأمريكي فرانز بوازFranz Boas أكبر الأثر في الأنثروبولوجيا إلى وجهة جديدة تختلف عن المدرسة التطورية، ويرجع إليه الفضل في نشر الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا بحيث أصبح معظم المتخصصين في هذا الفرع من الأمريكيين، ومن الممكن تسمية الاتجاه الجديد (التاريخي التجزيئي) ويتمثل في موضوعين:

**الأول:** الاهتمام بالدراسات التفصيلية لثقافات فردية صغيرة مثل ثقافات العشائر والقبائل، وتتم دراسة العشيرة أو القبيلة في إطار منطقتها الإقليمية الثقافية، وترمي تلك الدراسة إلى إعادة بناء وتصور تاريخ ثقافة تلك العشيرة أو القبيلة في الماضي.

**الثاني:** المقارنة بين تواريخ مجموعة القبائل التي درست لتحقيق الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية كما يحدده العالم (Boas)، وهو الوصول إلى قوانين عامة لنمو الثقافات.

وتدرس الأنثروبولوجيا الثقافية, الثقافة أي أنها تتناول طريقة معيشة مجتمع ما، سواء أكان ذلك المجتمع بدائي أو متخلف أو نامي أو متقدم. والثقافة من صنع الإنسان وهي ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل قانون التطور وقانون البقاء للأصلح ولذلك يدرسها هذا الفرع بمناهج علمية لا تختلف عن المناهج التي تستخدمها العلوم الطبيعية. فالأنثروبولوجيا الثقافية ترمي إلى فهم طبيعة ظاهرة الثقافة وتحديد عناصرها سواء في المجتمعات الحالية أو المجتمعات القديمة، فهي تبحث في التغير الثقافي وعمليات الاقتراض والامتزاج والصراع بين الثقافات، وتحديد نتائج تلك الاتصالات الثقافية، كما تدرس خصائص الأشكال المتشابهة من الثقافات أي الأنماط الثقافية التي تحدث بصورة مستقلة في الأماكن والعصور المختلفة.

**وتكون دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ذات جانبين: الجانب الأول هو الدراسة المتزامنة أو في زمن واحد, أي دراسة المجتمعات والثقافات في نقطة زمنية من تاريخها. الجانب الآخر هو الدراسة التتبعية أو التاريخية وهو دراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ. ومن الواضح أن علم الآثار يكرس نفسه للدراسات التتبعية، حيث يركز في الأساس على المجتمعات والثقافات القديمة، وكذلك على المراحل الغابرة من الحضارات الحديثة، وهو يحاول إعادة رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية، وتتبع أثرها وتطورها عبر الزمان.**

تعرّف **الأنثروبولوجيا الثقافية** بوجه عامبأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو فيمجتمع لـه ثقافة معيّنة. وعلى هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدّث بلغة قومه[[1]](#footnote-1)(1).

وتعد الانثروبولوجيا الثقافية التراث المسيطر في الولايات المتحدة, حيث تشمل كل من الأثنوجرافيا او دراسة وتسجيل ثقافات معينة, والاثنولوجيا او التحليل المقارن والتاريخي للثقافات, ولمصطلح الانثروبولوجيا الثقافية معنيان: معنى واسع واخر محدود. فهي بالمعنى الواسع, تتضمن علم الاثار ما قبل التاريخ وعلم اللغة الانثروبولوجي, بالضافة الى الدراسة المقارنة للثقافات والمجتمعات الانسانية, وهي بالمعنى الضيق, تقتصر على دراسة الثقافات والمجتمعات الانسانية فقط.

الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

يختلف الأنثروبولوجيون فيما بينهم حول وضع الحدود الفاصلة بين الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية. فلا يمكن تحديد الفروق الأساسية بين الأنثروبولوجيا الثقافية التي تختص بموضوع الثقافة والأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تختص بالبناء الاجتماعي الذي هو أحد القطاعات الكبرى للثقافة، وذلك لوجود اختلافات في المراحل التكوينية التي مر بها كل علم.

ومن الضروري في دراسة الانسان واعماله التمييز بين عبارة (ثقافة) وبين العبارة المرافقة لها (المجتمع). فالثقافة هي طريقة حياة شعب ما اما المجتمع فهو تكتل منظم لعدد من الافراد يتفاعلون فيما بينهم ويتبعون طريقة حياة معينة, وبعبارة ابسط: المجتمع مؤلف من اناس, وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم.

اتجه معظم علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعدد من علماء الاجتماع بأبحاثهم الحقلية في مجتمعات محلية محددة, في دراسة البناء الاجتماعي, في حين انجذب عدد كبير من علماء الانثروبولوجيا الامريكية نحو دراسة الثقافة, بحيث تكاد الانثروبولوجيا في امريكا تصطبغ بصبغة ثقافية خالصة لا يشذ عنها سوى فريق العلماء الذين خضعوا بشكل مباشر لتأثير تعاليم الاستاذ راد كليف براون, فاتجهوا بذلك اتجاها بنائيا في ابحاثهم, مع الاهتمام بالنواحي الثقافية بالقدر الذي يساعد على فهم البناء الاجتماعي فحسب.

بعبارة اخرى ان الانثروبولوجيين الاجتماعيين البنائيين يعتبرون المجتمع هو الحقيقة النهائية التي تجعل من الممكن فهم طبيعة الانسان والنظم الاجتماعية التي تحكم ذلك المجتمع, بينما يرى العلماء الثقافيون ان الثقافة هي تلك الحقيقة النهائية المتمايزة بذاتها. وان المجتمع ليس سوى أداة ووسيلة لقيام الثقافة ووجودها واستمرارها.

ومن هنا يمكننا القول بان الاتجاه الثقافي يغلب على الدراسات الانثروبولوجية الامريكية, بينما تميل الانثروبولوجيا البريطانية ميلا شديداً نحو الدراسات البنائية, ويرتكز هذان الاتجاهان على التفرقة بين المجتمع والثقافة, واختلاف العلماء حول تحديد موضوع الانثروبولوجيا وهل هو دراسة العلاقات الاجتماعية او قواعد العرف والتقاليد.

لذلك تذهب المدرسة الإنجليزية إلى ضرورة الفصل بين الأنثروبولوجيتين على أساس أن كل فرع مهما مستقل بذاته، أما المدرسة الأمريكية فترى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية. فقد استخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية في انجلترا لأول مرة عندما أطلق على أول كرسي جامعي لهذا العلم، ولقد شغله جيمس فريزر Fraiser، ولقد اختير هذا المصطلح للتمييز بينه وبين الأنثروبولوجيا الطبيعية الذي كان يطلق عليه تجاوزا مصطلح (الأنثروبولوجيا).

اتضح مفهوم هذا العلم بوضوح عندما شغل ذلك الكرسي العالم راد كليف براون Radcliffe Brown الذي حدد موضوعه على انه العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي, ثم اقترب موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية من موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية عندما قرر دوركهايم Durkheim ضرورة دراسة (الحقائق الاجتماعية) على أنها أشياء (أي شيء يوصف بصورة مؤكدة على انه شيء حقيقي) لذا تتصف الحقائق بانها أولا: انها خارجة عن الفرد, وثانياً: انها ملزمة له، ترتب على ذلك إعلان كل من العلامة الفرنسي مارسيل موس M. Mauss والإنجليزي مالينوفسكي أن (الأشياء) التي من صنع الإنسان هي أيضا ظواهر اجتماعية وتدخل في نطاق علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويرى العالم ليفي ستراوس L. Strauss أن هذا الإدماج للأشياء في نطاق الأنثروبولوجيا الاجتماعية ساعد على اقترابه التام من الأنثروبولوجيا الثقافية ويقول ما نصه: (وهكذا يمكن لنا أن نقول أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية أصبحتا تدرسان نقس الموضوعات، ولكن يوجد اختلاف بسيط وهو أن الأنثروبولوجيا الثقافية تبدأ بدراسة الأشياء المادية والفنون العملية وتنتقل منها إلى دراسة النشاط الاجتماعي، بينما تبدأ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة الحياة الاجتماعية والانتقال بعد ذلك إلى دراسة الأشياء التي هي من نتاج العلاقات الاجتماعية وعن طريقها تعبر الحياة الاجتماعية عن نفسها. ويمكن تشبيه هذين العلمين بكتابين يحتويان على فصول متشابهة، ولكن يختلفان في ترتيب تلك الفصول وفي عدد الصفحات).

ومع ذلك فهو يعترف بوجود اختلافات أخرى يسميها بالطفيفة، ففيما يتعلق بالأنثروبولوجيا الاجتماعية نجد أنها من اكتشاف أن جوانب الحياة الاجتماعية من اقتصادية وفنية وسياسية وقانونية وجمالية ودينية تكون في الحقيقة مركبا متميزا لا يمكن فهم أي جانب منه إلا بالرجوع إلى باقي جوانب ذلك المركب لمعرفة التداخل الوظيفي بينهما، ونمى من مفهوم الوظيفة الاجتماعية مفهوم جديد وهو البناء الاجتماعي، وأصبح البناء الاجتماعي هو موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية وساد الاتجاه الإستاتيكي في دراسات هذا العلم، ورغم أن الأنثروبولوجيا الثقافية قد توصلت لذلك الفهم الكلي للثقافة كمركب متداخل العناصر والجوانب إلا أنها اتبعت في ذلك الاتجاه الدينامي وخاصة في عملية انتقال التراث الثقافي من جيل إلى جيل، وعن طريق ذلك الاتجاه الدينامي وضحت الثقافة ككل متداخل وليس كعناصر متفرقة، وينتهي "ليفي ستراوس" من هذه المناقشة إلى استنتاج أن الفرق بين العلمين هو في أسلوب الدراسة وليس موضوع الدراسة لأن الموضوع واحد تقريبا فلا يوجد مجتمع إنساني دون ثقافة، ولا يمكن أن توجد ثقافة حية دون مجتمع.

ومن هنا يمكننا القول بان الاتجاه الثقافي يغلب على الدراسات الانثروبولوجية الامريكية, بينما تميل الانثروبولوجيا البريطانية ميلا شديداً نحو الدراسات البنائية, ويرتكز هذان الاتجاهان على التفرقة بين المجتمع والثقافة, واختلاف العلماء حول تحديد موضوع الانثروبولوجيا وهل هو دراسة العلاقات الاجتماعية او قواعد العرف والتقاليد.

والواقع ان الظروف العامة التي لابست نشأة الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر في كل من بريطانيا وامريكا مسؤولة الى حد كبير عن قيام هذين الاتجاهين وتبلورهما. فقد كانت الانثروبولوجيا في اول امرها تقصر جهودها على دراسة المجتمع البدائي واشكال الحياة البدائية, ومن الطبيعي ان يتجه العلماء البريطانيين في دراساتهم للمجتمع البدائي الى المجتمعات القبلية في افريقيا حيث كانت معظم مستعمراتهم, وان يتجه الامريكيين الى دراسة قبائل الهنود الحمر في امريكا ذاتها, ولما كانت كل قبيلة من القبائل الافريقية تعيش في اغلب الاحوال في شبه عزلة اجتماعية واقتصادية بحكم الظروف الجغرافية التي تحيط بها, بحيث تؤلف القبيلة في ذاتها مجتمعا متمايزا او مستقلا عن غيره, لم يكن ثمة مفر من ان يقصر الباحث الانثروبولوجي دراسته الحقلية التي كثيرا ما تطول الى عامين كاملين على مجتمع قبلي واحد, وكان من السهل عليه ازاء ذلك ايضا ان يرى المجتمع القبلي كوحدة متكاملة, وان يلاحظ النظم الاجتماعية فيه ويدرس العلاقات المتبادلة بين الجماعات والزمر التي تنقسم اليها القبيلة, وبالتالي ان يدرس البناء الاجتماعي في تكامله وتماسكه وتمايزه. بالمقابل ان الظروف الطبيعية التي تسود في المناطق التي يسكنها الهنود الحمر في امريكا لا تفرض مثل هذه العزلة على كل قبيلة من قبائلهم, وان كانت هناك درجة كبيرة من الاختلاط والاتصال بين الجماعات المختلفة, كما ان تبعثر افراد القبيلة الواحدة وانتشارها كان يؤدي الى تداخل الى تداخل ثقافاتهم, وذلك بالاضافة الى ان معظم قبائل الهنود الحمر كانت لها ثقافاتها وحضاراتها القديمة كما كان لها تراثها وتاريخها وادابها, وهي امور تفتقر اليها غالبية القبائل الافريقية, ومن هنا كان من الاسهل على علماء الانثروبولوجيا الأمريكيين دراسة ثقافات هذه القبائل وقواعد العرف والتقاليد السائدة فيها, بدلا من دراسة البناء الاجتماعي الذي يقتضي وجود جماعة محلية محددة, وبذلك اتجه التفكير الانثروبولوجي في امريكا اتجاها ثقافيا منذ البداية, ويعلل الاستاذ (ايفانز برتشارد Evans Pritchard) توجه الأنثروبولوجيين الامريكيين الى التركيز على دراسة الثقافة, هو اما لان مجتمعات الهنود الحمر التي كان العلماء الامريكيين يركزون ابحاثهم عليها مجتمعات مجزأة غير متماسكة مما يجعل دراسة ثقافتها اسهل بكثير من دراسة البناء الاجتماعي, واما لعدم وجود تقاليد قديمة هناك يراعونها في الدراسة الحقلية المركزة التي يستعمل الباحث فيها لغة الناس انفسهم والتي تستغرق فترات طويلة من الزمن كما هو الحال في بريطانيا, مما يجعلهم يفضلون دراسة الثقافة على دراسة العلاقات الاجتماعية. ويذكر الاستاذ (هوجبن Hogbin) ان التفرقة بين المجتمع والثقافة تنطوي على كثير من الصعوبات, ولكنه يعرف المجتمع بانه يشير الى كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين افراد المجتمع المحلي, اما الثقافة فانها تعني كل انماط السلوك المقنن, وبذلك فان كلا منهما هو وجه لشي واحد, بعبارة اخرى اذا كان المجتمع هو مجموع العلاقات الاجتماعية, فان الثقافة تكون هي محتوى هذه العلاقات, او اذا كان المجتمع عبارة عن مجموعة منظمة من كائنات البشرية التي تتميز بطريقة معينه للمعيشة, فان الثقافة تكون هي تلك الطريقة ذاتها.

وعلى الرغم مما يبدو من بساطة الامر فيما يتعلق باختلاف وجهات النظر الى موضوع الانثروبولوجيا, فقد ترتبت عليه في الواقع نتائج بعيدة المدى تظهر بشكل واضح في اختلاف مناهج الدراسة ومدى التفسير والتأويل, بحيث تبدو الانثروبولوجيا الان كما لو كانت منقسمة الى علمين مستقلين احدهما عن الاخر كل الاستقلال, وهما الانثروبولوجيا الاجتماعية التي تهتم بالعلاقات والنظم والابنية الاجتماعية, والانثروبولوجيا الثقافية التي تهتم بدراسة العادات والعرف والتقاليد وغيرها من مكونات الثقافة على العموم, فالاهتمام بدراسة البناء الاجتماعي معناه, التركيز على العلاقات الاجتماعية بصرف النظر عن تفاصيل التعبيرات الثقافية التي يتضمنها سلوك الناس, ثم تفسير هذه العلاقات على المستوى الاجتماعي البحت. اما الاتجاه الثقافي, فانه على العكس من ذلك يمكن اعتباره امتداد للتفكير الانثروبولوجي الذي كان يسود لدى عدد كبير جدا من علماء القرن التاسع عشر, والذي يمثلهم تايلور خير تمثيل, وهو اتجاه يتطلب نوعا مختلفا من التاويلات, ولذا فهو يلجأ في الاغلب الى الاستعانة بالتاريخ وعلم النفس لتفسير الظواهر الثقافية.

ففي دراسة Exogamy (الزواج الاغترابي او الزواج من خارج الجماعة) مثلا: نجد ان الانثروبولوجيين البنائيين يحاولون التعرف على علاقة الاكسوجامية كنظام ببقية القرابة الذي تدخل في تكوينه, وذلك على اعتبار ان هذا النظام قد لا يقضي فقط بتحريم الزواج من داخل الجماعة القرابية, بل ويتطلب ايضا الزواج من جماعات اخرى غريبة معينة بالذات, مما يؤدي الى توسيع دائرة القرابة في نطاق محدد وتقوية بين الروابط المصاهرة بين هذه الجماعات, ثم بتبين اثر ذلك في تشابك المصالح الاقتصادية بين الجماعات المتصاهرة, كما يحاولون اكتشاف النتائج السياسية التي تترتب على الزواج من جماعة او قبيلة اخرى غريبة, نظرا لان الجماعات المتصاهرة في كثير من المجتمعات التقليدية والمختلفة تؤلف في الالب احلافاً سياسية تتعاون في الحروب والاغارات والمنازعات, كذلك يحاولون معرفة العلاقة بين الاكسوجامية والنسق الديني السائد في تلك الجماعة, على اعتبار ان الدين هو الذي ينص في كثير من الاحيان على تحريم انواع معينة من الزيجات في كل مجتمع, ويظهر هذا بشكل واضح في المجتمعات القبلية التي تعرف نظام الطوطمية الذي يحرم بمقتضاه الزواج بين افراد الطوطم الواحد وهكذا, اما الانثروبولوجيون الثقافيون, فانهم على العكس من ذلك يحاولون يتتبعوا الصور والاشكال المختلفة التي تتخذها الاكسوجامية وان يتبنوا مدى انتشارها والاسباب الدافعة الى اتباعها, ويردونها في الاغلب الى اسباب سيكولوجية قد تتعلق بالنفور الطبيعي من الزواج بين الاقارب وبخاصة في المجتمع البدائي الضيق المغلق, الذي يحس افراده بقوة علاقات القرابة بشكل غير مالوف في المجتمعات الكبيرة مما يجعل الرجل هناك ينظر الى العلاقة الجنسية مع اية امرأة من جماعته القرابية على انها نوع من الزنا بالمحارم, او قد يتصل بالخوف من ضعف النسل او انتقال الامراض الوراثية اذا تم الزواج بين الاقارب او ما الى ذلك, فواضح هنا ان التأويل هنا يقوم على مبادئ تختلف عن تلك التي يقوم عليها التفسير الاجتماعي الذي يلجا اليه اتباع الاتجاه البنائي.

1. (1) رالف بيلز, هاري هيجر, الانثروبولوجيا العامة, ت. د. محمد الجوهري واخرون, دار نهضة مصر, القاهرة, 1976, ص21. [↑](#footnote-ref-1)